



ما السبب وراء ضخامة سفر (ثروة الأمم)؟

حين نجلس لنقرأ تحفة آدم سميث (ثروة الأمم)، ونضع في حضننا أجزاءه الثقيلة، ثم نفتح الصفحة الأولى من صفحاته العديدة، نجد أنفسنا في حالة من الإحراج الفكري التي تتجاوز مجرد الاختلاف مع منطق سميث وحكمه البدهي السليم. نواجه إشارة استفهام كمية. وهذا ما يحدث لمعظم قراء غالبية الأعمال العظيمة (خصوصاً في وقت متأخر من الليلة السابقة على الامتحان). حتى أشد المخلصين للتفسير النصي/الحريفي للكتاب المقدس، في أي ندوة معمدانية محافظة، لا بد أن يفكر فيها (الإشارة) وهو يخوض في قوائم أنساب الأسباط في الأسفار التاريخية (في العهد القديم)^(١). وأنا، أو في الأيام السعيدة التي أعتقد فيها أنني كذلك، مؤيد مخلص للأسواق الحرة ومدافع متحمس عنها. لكن (ثروة الأمم)، في نسخة

(مودرن لايبيراري) التي بحوزتي، مؤلف من تسعمئة صفحة، إضافة إلى تمهيد، ومقدمة المحرر، وملحق.

قيل لي إن من مسرات الكهولة قراءة الكلاسيكيات مرة أخرى. لكنني الآن، بعد مرور أربعين سنة تقريباً على آخر درس حضرته في الجامعة، نسيت كل شيء عنها. من المفترض بي أن أكتسب رؤية إدراكية جديدة وناضجة من (حوارات) أفلاطون؛ وأتذوق طعمًا جديدًا وطازجًا في (ضياح الفردوس)؛ وأعرف بوصفي راشدًا بالغًا العجائب المنسية لـ (ثروة الأمم). وهذه تشمل التساؤل: هل قرأته فعلاً من قبل؟ ثم اختبرت نفسي بسؤال صريح: هل نسيت المرجع الشهير الذي يشرح روائع الكتب (مونارك نوتس) (Monarch Notes)؟

على أي حال، ثمة متعة أخرى في منتصف العمر هي أن الكهل لا يتأثر كثيرًا بالغضب الناجم عن الخذلان وخيبة الأمل. فأنا الآن على أتم الاستعداد لطرح السؤال الذي لم أمتلك الشجاعة لطرحه، حين كنت طالبًا جامعيًا. تصوروا طالبًا في سنة التخرج يستحضر ما لديه من جرأة ليسأل عن السبب وراء التطويل الممل في رواية جورج إليوت (ميدمارش Middlemarch)!

يتمثل أحد أكثر الأسباب بساطة وراء عدم اقتصاد سميث في الكلمات في أنه ملائم اقتصاديًا. فحين نشر الكتاب بلغ سعر النسخة جنيهاً وستة عشر شلنًا. ووفقًا لتقديرات سميث ذاته، لم يتجاوز (أجر العامل العادي) آنذاك عشرة شلنات في الأسبوع.

وكان المستهلكون، حتى المستهلكين الميسورين للسلع الفكرية المترفة، يطالبون بأن يكون المنتج ثقيل الوزن كبير الحجم. لنقارن الحال مثلاً مع (اعتذار عن حياته) لبيل كلينتون الذي يمكن إيجازه بوضع كلمات مختارة.

جمع (القارئ الليبرتاري)، الذي نشره معهد كاتو عام ١٩٩٧، الأفكار الجوهرية لآدم سميث، المقتطفة من (ثروة الأمم)، في سبع صفحات ونصف الصفحة. وحين كان ديفيد بوز، نائب المدير التنفيذي للمعهد، ومحرر (القارئ)، يكتب المقدمة، أضاف شيئاً بقصد توفير المتعة الكاملة لقراء كل عمل أصيل استمد منه مادته. لا، لا، ليس (ثروة الأمم)، حسبما قال توم بالمر، كبير الزملاء في المعهد والخبير المختص (المقيم) بآدم سميث.

تمثل نبوغ سميث في ترسيخ علم الاقتصاد بوصفه فرعاً معرفياً متميزاً عن الخليط المتشابك والمشوش للعالمين العقلي والمادي الذي نواجهه في الاقتصاد الفعلي على أرض الواقع. لكن الأمر لا يتطلب مواجهة اقتصادية شاملة لاستحضار الخلطة المتشابكة من الفروع العلمية والمعرفية إلى رأسي. والتفكير في علم النفس، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والهندسة الميكانيكية المعنية عندما اكتشف أن طفلي البالغ خمس سنين أخذ لعبة من المتجر (السوبر ماركت) دون أن يدفع ثمنها. كان آدم سميث، مثلنا أنا وطفلي المنتحب، على استعداد للابتعاد عن المعايير الاقتصادية الصارمة.

ها هو هنا، يسبق عصرنا بأكثر من مئتين وثلاثين سنة ليوضح السبب الكامن وراء الثروة المشينة التي جمعتها أنجلينا جولي:

هنالك عدد من المواهب اللطيفة والبديعة يحظى امتلاكها بنوع معين من الإعجاب؛ لكن ممارستها في سبيل المكسب تظل محل مساءلة وأخذ ورد.. مثل (الأعمال غير الشريفة).. فالمكافآت الضخمة التي ينالها الممثلون، ومغنيات الأوبرا وراقصاتها إلخ.. مؤسسة على.. ندرة المواهب وجمالها، ومساءلة استخدامها^(٢).

هذا النوع من الآراء هو الذي يجعل الصفحات التسعمئة (٨٩٢ صفحة على وجه الدقة) من (ثروة الأمم) غير المتضمنة في نسخة (القارئ الليبرتاري)، تستحق القراءة. أو بعضها على الأقل. لم يخطئ توم بالمر فيما يتعلق بالقراءة المتمهلة المتأنية لـ (ثروة الأمم). إذ لا تتصل استطرادات سميث كلها براقصات الأوبرا اللاتي تتنين وتمايلن على أنغام مونتيفيردي (شبه عاريات كما نعتقد). هنالك على سبيل المثال (الاستطراد المتعلق بالتغيرات في قيمة الفضة على مدى القرون الأربعة الماضية). هنا، تستعمل الخدمة الطويلة (للمزارعين من أصحاب الأراضي) في سبيل إبطال الفكرة القائلة إن لبعض السلع المعينة قيمة ثابتة، أو نحن نريدها أن تكون كذلك. لكن بالنسبة للقراء غير المهتمين بالتاريخ المكتوب لمورد العملة، يبدو الأمر مثل قراءة كتاب (النضج الحديث) باللغة الأوردية.

ربما قيدت ضخامة حجم الموضوع ذاتها رغبة سميث في الإيجاز. وربما فكر، وقد بلغ الثالثة والخمسين وتدهورت صحته عندما نشر (ثروة الأمم)، بأنه لن يؤلف كتاباً آخر. وهذا ما حصل فعلاً. فقد كان (لديه الكثير مما يريد قوله وستحت فرصة موأتية)، على حد تعبير توم بالمر.

كان القرن الثامن عشر عصر وضوح التعبير - حقبة استراحة بين الأسلوب البياني المتأنق في العصر السابق، والأسلوب الرومانتيكي السخيف للعصر اللاحق. لكن أسلوب عصر الأنوار بقي مع وضوحه مبالغاً في الإطناب والإسهاب. ولم يُعد الاستطراد، إن بدا مهماً، مشتتاً لذهن القارئ. ونظر إليه القراء بالطريقة ذاتها التي تنظر عبرها الأمهات العاملات في القرن الحادي والعشرين إلى تعدد المهمات. كانت القراءة أكثر بطئاً وتمهلاً في القرن الثامن عشر، ولدى القارئ فسحة زمنية أطول يخصصها لها، نظراً لعدم وجود جهاز تلفزيون يستهلك وقت فراغه كله!

كتب إدموند بيرك^(*)، الذي لم يخرج هو أيضاً عن أسلوب الاستطراد السائد، في رسالة إلى آدم سميث يقول: (أنت في بعض المواضع مثل السيد لوك في معظم كتاباته، مغالياً في الإطناب والتطويل. لكن هذه نقيصة من النوع السخي، ومفضلة إلى أبعد

(*) (١٧٢٩-١٧٩٧): سياسي وخطيب بريطاني دافع عن قضايا حقوق الإنسان وجذب الانتباه إليها في خطبه. كما طالب بالمصالحة مع المستعمرات الأمريكية والتوقف عن ممارسة القمع في الهند. (الترجم).

حد على الأسلوب الجاف العقيم، الذي يرجح أن يسقط في فحه أصحاب المخيلات المملة البليدة)^(٢).

كانت معرفة القراءة والكتابة بين عامة الناس ظاهرة جديدة نسبياً في عصر سميث، ولم يتصور أحد بعد الأسلوب الجاف العقيم في الكتب الحديثة لتدريس علم الاقتصاد. والكلمة المطبوعة أقرب ما تكون إلى الكلمة المنطوقة. ولا يزال الكلام مصدراً للتسلية والترفيه. أما اليوم، فلا يمكن للدليل الأخضر لـ (مؤسسة ميشلين) أن يمنح نجمة امتياز إضافية إلى مطعم يقدم لزبائنه وجبة عشاء من خمسة أطباق في عشرين دقيقة. وللسبب ذاته، لم تكن البلاغة في الإيجاز، ولم يشتهر به الخطباء - والكتاب بالتوسع - في القرن الثامن عشر. وربما يكون الإيجاز روح البلاغة والذكاء والظرف، لكن (ثروة الأمم) ليس دعاية أو طرفة. وعلى أي حال، كان الإيجاز في التعبير أسلوباً جديداً لم ينتشر إلا منذ مدة قريبة. على سبيل المثال، لم يتلق خطاب لينكولن في بتسبرغ استجابة حماسية. إذ بقي الأميون وأنصاف المتعلمين يفضلون الخطباء والخطب الحماسية والتهيجية على طريقة هوغو شافيز في فنزويلا، ومقدمي البرامج الإذاعية المحلية المملة.

كان آدم سميث خطيباً ممارساً مفوهاً. بدأ حياته المهنية، في إنديس، بإلقاء الخطب الفكرية المأجورة. وقضى ثلاثة عشر عاماً يحاضر في جامعة غلاسكو، أولاً بوصفه أستاذاً في المنطق، ثم في

فلسفة الأخلاق. فمهنته هي إلقاء المحاضرات. إذ لم يكتف أساتذة الجامعات في ستينيات القرن الثامن عشر بطرح الأسئلة المفتوحة للنقاش في الصف، ثم التشدد بالقول: (نتعلم من طلابنا أكثر مما نعلمهم). فالشكل يتبع الوظيفة. وتشبه آدم سميث بالقاعدة التي اتبعها خبراء الأسلوب التلقيني كلهم: قل ما تريد قوله، وما تقوله، وما قلته.

وفقاً لجون ميللار، أحد تلاميذ سميث، الذي سيصبح أستاذاً في جامعة غلاسكو أيضاً، كان أسلوب سميث (جافاً وواضحاً وبعيداً عن الرشاقة.. لكن بمرور الزمن أصبح أكثر دفئاً وحيوية، وتميزت تعابيره بالسهولة والسلاسة)^(٤). أو، عبّر عن رأيه بكل صراحة. وعلى الأصح يمكن القول إنه عبّر عن رأيه إلى أقصى حد. لم يبق من محاضرات غلاسكو سوى بعض المقتطفات والملاحظات الناقصة التي دونها طلابه، لكن هناك أدلة فيها تثبت أنه بدأ يشكل أفكاره تحضيراً لـ (ثروة الأمم). إذ تمدد أسلوبه المنهجي المسهب ليشمل أحاديثه الخاصة. ذكر أحد أصدقائه: (كثيراً ما قلت له بعد نصف ساعة من الحديث: سيدي، قلت ما يكفي لتأليف كتاب)^(٥). وهكذا، يبدو كتاب سميث أحياناً وكأنه نسخة مكتوبة لتتصت على مكاملة هاتفية بين عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)، باستثناء الأفكار الأكثر عمقاً والألفاظ البديئة.

(قلت ما يكفي لتأليف كتاب) تعليق صحيح أيضاً لأن سميث أملى كتاب (ثروة الأمم) على الأرجح. إذ زعم أنه وجد فن

الكتابة باليد بطيئاً وصعباً، وأظهر ذلك خطه الرديء ومراسلاته الشخصية. ربما جعلت الطبيعة المسهبة للإملاء وما تتصف به من إطناب وحشو (ثروة الأمم) كتاباً طويلاً وضخماً، لكن يجب ألا نشتكى من ذلك. فمعظم الكتاب يطيلون في الكلام وكثيراً ما استهلكوا ما يمتلكونه من مهارة لفظية مفوهة في أحاديثهم الفارغة بدلاً من كتاباتهم. هنا، يمكننا مغايرة ما يتصف به كل من سميث والدكتور جونسون(*) من مهارة والمعية. في هذه الأيام، يجب أن نلجأ إلى بوزويل(**) لتتعرف العبارات الذكية واللماحة للدكتور، التي لا تتمثل تمثيلاً جيداً في أسلوبه الممل والكئيب في الشعر والنثر.

ثمة سبب آخر للطبيعة المتوسعة والمطولة لـ (ثروة الأمم) يجسده جهده المبذول (الذي يذكر بهنري جيمس) لتحديد عباراته وجعلها ملائمة لإنتاج المعنى الدقيق الذي أرادته. وبالطبع، كان سميث يتعامل مع الواقع الحقيقي، لا الحالة الذهنية العابرة والمشوشة للطبقة الغنية المصابة بالسأم كما تبدو في هذيان العجائز. فضلاً عن أن جمل سميث تنتهي قبل أن تطول كثيراً. وحين تصل إلى النهاية يكون المعنى قد اتضح. على سبيل المثال، نقدم جملة من الاستطراد أنف الذكر عن الفضة:

يجب أن نتذكر دوماً أن العمل، لا أي سلعة أخرى أو مجموعة من السلع، هو المقياس الحقيقي لقيمة الفضة والسلع الأخرى كلها في آن معاً^(٦).

(*) صمويل جونسون (١٧٠٩-١٧٨٤): ناقد، وشاعر، ومعجمي، ومحدث إنجليزي مفوه. (الترجم).

(**) جيمس بوزويل (١٧٤٠-١٧٩٥): مؤلف اسكتلندي ومؤرخ مخلص لسيرة صمويل جونسون. (الترجم).

يمكن اختصار الجملة السابقة بوضع كلمات: (العمل.. هو مقياس.. القيمة). وعند الاقتباس من آدم سميث، تمثل (..) (المحدوفة) أكثر ما قاله مضاء وحدة وأهمية. وربما كانت هذه الكلمات المحدوفة الحادة في (ثروة الأمم) هي التي جعلت كارل ماركس مجنوناً. لنلاحظ عند قراءة جمل آدم سميث الأصلية أن (نظرية قيمة العمل) الماركسية العظيمة لم تكن قد ابتكرت بعد. بل إن سميث - بعد ثلاث مئة صفحة -، يقدم النوع ذاته من الحجج عن الحبوب الغذائية: (في نهاية المطاف، تقاس القيمة الحقيقية لكل سلعة أخرى وتقرر.. بواسطة السعر النقدي الوسطي للحبوب)^(٧). ومن ثم، يؤكد أن العمل (أو عنصراً وثيق الصلة به، مثل رغبة خبزنا اليومي) يوفر مؤشراً منطقياً لتقرير كم تساوي الأشياء الأخرى بالنسبة لنا. إن تقرير هل نقصّ العشب بأنفسنا أو نكلف ابن الجيران بقصه - مع الأخذ في الحسبان احتمال أن يأكل طعامنا وقت الغداء، ويصيب قدمه بجرح، ويقاضينا، فنضطر إلى البحث عن وظيفة أخرى لدفع تكاليف الإجراءات القانونية - هو أمر يفعله الكل على الدوام. والماركسية، مثلما اكتشفت الأنظمة الماركسية على اختلاف أنواعها، فكرة لن يطبقها أحد أبداً لو استطاع إلى ذلك سبيلاً (بالمناسبة، إذا كانت نظرية قيمة العمل صحيحة، سيكون بعض الأطفال أقل قيمة من سواهم).

يعوض الذكاء الحاد لكتابة (ثروة الأمم) عن العمل المضني الذي تتطلبه قراءته المتأنية. كما يكتشف القارئ شيئاً آخر ذا

قيمة - شيئاً لم يلمح له الاقتصاديون أو الباحثون - ألا وهو روح الدعابة التي يتميز بها سميث. ها هو يقوض فكرة أن على الأمة تجنب استيراد السلع التي تُستهلك، والتثبت بدلاً من ذلك باكتناز الذهب والفضة، لأن للمال قيمة دائمة:

لذلك، لا شيء مما تدعيه يمكن أن يتجاوز في ضرره (لأي بلد) التجارة المكونة من تبادل مثل هذه السلع الدائمة مقابل تلك المستهلكة. لكننا لا نفترض أن التجارة ضارة حين تتألف من تبادل الخردوات المعدنية الإنجليزية مقابل العطور الفرنسية؛ مع أن الخردوات سلعة أكثر متانة وتحملًا، ولولا هذا التصدير المتواصل، الذي تراكم على مر العصور، لما حظيت القدور والأباريق بهذا الدعم غير المعقول في البلد^(أ).

تتبدى المواضع التي لا يُعوض فيها الجهد المرهق المطلوب لقراءة (ثروة الأمم) على الدوام عند الخوض في الفقرات الصعبة التي يحاول فيها سميث صياغة ميدانه الفكري. وعلى وجه الخصوص عندما يحرث في البراري الشاسعة البور لعلم الاقتصاد الإحصائي (وهو الرائد الوحيد في هذا المجال). إذ لم تتوافر إحصائيات موثوقة في القرن الثامن عشر، ولم توجد بالتأكيد مجموعة منها تغطي عقوداً ماضية من السنين. وعبر القراءة الواسعة والمراسلات المطولة، تمكن سميث من العثور على أرقام لتوكيد نظرياته. لكن تطلب كل رقم التفحص الدقيق للتأكد من صحته وفائدته

للمقارنات. وعلينا البقاء هناك مع سميث وهو يتفحص التفاح والبرتقال بتمهل وترو مثل عجوز صعبة الإرضاء في أسوأ متجر للخضار والفواكه في العالم.

بعد ذلك يخضع سميث البيانات الرقمية لتحليل بياني مفصل في غياب العنصر الضروري الذي لا غنى عنه: الرسوم البيانية. رسم أول تمثيلات بيانية مفيدة للإحصائيات مواطن آدم سميث الاقتصادي الاسكتلندي وليام بليفيير عام ١٧٨٦، أي عند المراجعة النهائية لمخطوط (ثروة الأمم). عرف سميث بليفيير، الذي كان شقيقاً لصديق مقرب منه. لكن للأسف، لم يعترف النابغة بالنابغة. في الحقيقة، لم يعترف نابغان اثنان به. قال الاقتصادي جيرمي بينثام*^(٩) عن أفكار وليام بليفيير الاقتصادية: (تسعة أعشارها مكتوبة بمذكرات سيئة^(٩)). وبوصفه مفكراً لا مساحاً، كان بليفيير مبتدئاً، لكنه رغب في أن يبدي سميث اهتماماً بالشباب المبتدئ. ربما أمكن لمئات الصفحات في (ثروة الأمم) التي يمر عليها القراء مرور الكرام اختصارها في عدة صفحات يمكن تجاهلها كلية.

ثمة شيء آخر يفتقر إليه سميث، إلى جانب الرسوم البيانية، هو اللغة الاصطلاحية المتخصصة. فقد كان الاقتصاديون في مرحلة جديدة ومبكرة بحيث تعذر عليهم تطوير لغة من الكليشيات الشائعة. وحين تعذر ذلك على فهم آدم سميث، لم يجد تعابير

(*) (١٧٤٨-١٨٢٢): خبير قانوني وفيلسوف إنجليزي. (المترجم).

تقنية وجيزة ومثيرة تشكل لغة اختزالية تحل محل اللغة المفككة التي افتقدت الترابط والاتساق. واضطر إلى المبالغة في الإسهاب والتطويل الممل لشرح الموضوع (وإنهاك القارئ معه).

لكن لا بد أن يطول الكتاب في الأحوال كلها. إذ اشتق عصر الأنوار اسمه، من منظورنا الآن، من لحظة كاريكاتورية ساخرة في التاريخ الفكري. فقد بدت المصاييح الكهربائية - التي لم ت اخترع بعد - مضاءة فوق رؤوس مفكرين من أمثال آدم سميث، الذين أدركوا أن العالم المادي ليس كياناً غامضاً مقدساً لا سبيل إلى فهم كنهه إلا بالطقوس الدينية والتأملات الغيبية. بكلمات أخرى، عرفوا أن عدم النظر إلى الأشياء ليس أفضل طريقة للنظر إلى الأشياء. فإذا أنيرت آلية الطبيعة بشيء من الملاحظة والفكر، يمكن رؤية طريقة عملها. الكون قابل للتفسير. وسوف يفسره مفكرو عصر الأنوار، الذين يجسدون (المحرك الأول).

لكن القابلية للتفسير واجهت المصاعب، مثلما تترس عدم القابلية للتفسير في حصونه المريحة. لناخذ على سبيل المثال مسألتين اثنتين كان يفسرهما آدم سميث (وتطرقنا إليهما آنفاً: ١) ليس للمال قيمة موضوعية؛ ٢) المال تعبير رمزي عن القيمة الذاتية، لأن في أي تبادل لسلعة (أو خدمة) بين شخصين يحصل كلاهما على أفضل جانب من الصفقة. هذا لا يعني أننا، نحن الذين يقدم لنا ذلك مفسراً، أغبياء. لكن كل مدير تنفيذي حديث يتلقى تعويضات ضخمة قد جرب التفسير الأول معنا. وكل

تاجر سيارات يحاول تقديم الثاني حين نعرض عليه صفقة مبادلة
سيارتنا القديمة بأخرى جديدة.

تبدأ التفسيرات كلها وجيزة مختصرة. لكن سرعان ما يعلق
سميث في متاهة متشابكة من التوضيحات، ليقبض عليه القارئ
متلبساً، مثل زوج عائد إلى البيت في الثالثة فجراً وهو يظن أن
زوجته نائمة، بينما هي تقف متيقظة غاضبة في انتظاره!

تبدأ التفسيرات كلها وجيزة مختصرة، باستثناء المسائل
القانونية بالطبع. ولا يشذ (ثروة الأمم) عن ذلك. كرس آدم
سميث مئة صفحة لإدانة النظام التجاري. إذ مثلت الميركانتيلية(*)
النظرية الاقتصادية السائدة في عصره - إن جازت تسميتها
نظرية. في الحقيقة، كانت الميركانتيلية (كيس خرق بالية) من
الأنظمة التجارية والسياسات الضريبية والتعريفات والرسوم
الناجمة عن سياسة المصلحة الخاصة، ونفوذ الباعة المتجولين،
والصفقات البرلمانية، مجمعة كلها مع سوء فهم عام للنقد، وتدفق
رأس المال، والتمويلات الحكومية. واعتقد دعاة الميركانتيلية أن
الطريقة الفضلى لجعل الأمة غنية هي زيادة صادراتها والحد من
وارداتها. المثال المتطرف الذي يدعم حجة سميث ضد الميركانتيلية
هو: الواردات تمثلها فاتورة بطاقة الائتمان في أول يناير!!
والصادرات تمثلها فاتورة بطاقة الائتمان في أول يناير!!

(*) نظام اقتصادي أوروبي أيد الاستيلاء على المستعمرات التي توفر المواد الخام والأسواق، وتحرر الدولة
المستعمرة من الاعتماد على الدول الأخرى. (المترجم).

يوجه (ثروة الأمم) أصابع الاتهام إلى السياسيين والتجار الأغنياء في العالم كله. لكن هؤلاء أيضًا أعضاء في هيئات المحلفين، وقضاة، ومسؤولون في المحاكم. والمفاجئ أن قرار تبرئة دعاة الميركانتيلية لم يكن فوريًا. قبل وليم بت، رئيس الوزراء البريطاني في أواخر سنوات سميث، الدليل المقدم وأجرى بعض الإصلاحات التي اقترحها (ثروة الأمم). في حين تجاهلها الكسندر هاملتون، مهندس السياسة الحمائية الأمريكية. لم تحسم القضية حتى الآن بعد نشر الكتاب بأكثر من قرنين وربع القرن - وظهور دعاة الميركانتيلية الجدد الذين يحكمون الصين، ومعارضة العولمة المنتشرة في مختلف أرجاء العالم، والحجارة التي ترمى بين الحين والآخر على نوافذ مقاهي (ستاربكس) لأنها لا تعزز (التنمية المستدامة).

في هذه الأثناء، يواصل آدم سميث تقديم الشهادة. (ثروة الأمم) أكثر من مجرد تفسير، أو تحليل، أو حجة. إنه موعظة طويلة. موعظة جحيمية. اشتهر سميث بمحاربة مبدأ عدم التدخل الحكومي في الاقتصاد (وهو تعبير لم يرد في كتاباته)، وبنقته المزعومة ب (اليد الخفية) الدافعة للتقدم الرأسمالي. لكنه عرف بأن اليد يمكن أن تقبض وتحتكر: (نادرًا ما اجتمع التجار العاملون في المجال نفسه.. لكن - حين يلتقون - ينتهي الحديث بينهم بمؤامرة على عامة الناس)^(١٠).

أدرك سميث أن الاقتصاد الاستهلاكي المزدهر لن يغير الطبيعة البشرية: (كبرياء الرجل تدفعه إلى حب الهيمنة، ولا شيء يذله مثل اضطراره للتنازل وإقناع مرؤوسيه)^(١١). حقًا، هذا ما نشعر به في كل مرة نطلب أجرًا على خدماتنا أو بضائعنا.

اعتقد سميث فعلاً أن الأسواق الحرة يمكن أن تحسن حال العالم. قال ذات مرة، في محاضرة ألقاها أمام جمهور من المتعلمين، إن التقدم لا يتطلب (أكثر من.. السلام، وتخفيض الضرائب، وإدارة رشيدة متساهلة)^(١٢). لكن هذه العناصر الثلاثة، كانت - وما زالت - أندر العناصر في العالم.

انتقد سميث الحمل الجاذب للسلطة والامتيازات الذي سيرهق دومًا - إن استطاع - حياتنا وعيشنا. (ثروة الأمم) متراس حصين من المواعظ الأخلاقية عن الحرية والمشروعات الحرة النزيهة. المواعظ تترى فيه، لكنها يجب أن تبقى زمنًا طويلًا للسبب ذاته الذي يجعل الأسوار والجدران الحجرية باقية. والجدار لا يثبت السقف الذي يوشك على الانهيار فوقنا.





نظرية العواطف الأخلاقية ومحاولة آدم سميث تنظيف (إسطنبول أوجياس) (*) المشابهة للوضع الإنساني

العنوان الفرعي غير المطبوع لهذه السلسلة التي تنشرها مؤسسة (غروف/أتلانتيك) (Grove/Atlantic) وتشمل الكتب التي غيرت العالم، هو: (أعمال لن تقرأها - كما يجب أن نعتزف - بكليتها). ولوليام كريستول، رئيس تحرير مجلة (ويكلي ستاندارد)، الذي يتفوق علي في سعة الاطلاع، عبارة بليغة لوصف مثل هذه الأسفار الضخمة: (يجب أن نقرأ فيها). من حسن الحظ أنه يمكننا تطبيق ذلك على (ثروة الأمم). ومن سوء الحظ، أن هناك كتاباً ألفه سميث قبل (ثروة الأمم) لم نقرأه قط: (نظرية العواطف الأخلاقية)، الذي نشر عام ١٧٥٩. ولا يمكن فهم اللاحق دون فهم السابق.

(*) (في الأساطير اليونانية) تمثلت إحدى مهمات هرقل في تنظيف إسطنبول الملك أوجياس التي لم تنظف منذ ثلاثين سنة، في يوم واحد. أنجز هرقل المهمة حين حول مجرى نهرين ليمرأ عبرها. (المترجم).

كرس آدم سميث معظم حياته المهنية لمشروع فلسفي وحيد: تحسين الحياة المعاشة. ويشعر القارئ الحديث بإغراء يدفعه إلى الضحك. فالمهمة ضخمة وصعبة وشاقة.. ومسلية. لكن كثير منا تولوا القيام بمهمات من هذا القبيل، مثل تربية الأطفال. إذ تغوينا للدخول في المشروع مسرات البدايات - إذا جاز التعبير. البدايات الجديدة ممتعة ومبهجة دوماً. وآدم سميث يقع - فكرياً - في عشق فكرة التحسين البكر. حظي احتمال إدخال تحسينات بالجملة على الحياة العادية في القرن الثامن عشر بالسحر ذاته الذي تحظى به احتمالات جعل الحياة في أيامنا هذه أكثر بساطة وأقل تعرضاً للضغوط والتوتر (مع منع الرسائل غير المرغوب فيها من الوصول إلى بريدنا الإلكتروني!).

انطلق سميث لفهم كيفية ظهور منظومات الأخلاق والاقتصاد والحكم، وكيف يمكن للناس تحسين ظروفهم الأخلاقية والمادية والسياسية، من فهم طريقة عمل هذه المنظومات. كانت تلك فرصة ثمينة للتفاخر والتباهي، لو انتهزها مفكر حديث - مثل هيربرت ماركوزه، أو نيوت غينغريتش، أو آل فرانكين - للخوض في هذا الموضوع. لحسن الحظ، تمتع سميث بمهارة عصر الأنوار في عرض الأفكار العميقة دون أن يسبب لنا الإحراج أو الإزعاج. وتمثل سره المكنون في القدرة على بلوغ المثالية دون اتخاذ تلك الخطوة اللاحقة، المزعجة والمنبئة الصلة عما سبقها، للتحويل إلى حالم من أصحاب

الرؤى. لم يزعم امتلاك (مخطط تفصيلي للمجتمع) ، لكنه افترض أن البناة الجهلة وغير المؤهلين للمجتمع (مثله ومثلنا) لا يمكنهم اتباع مخطط محدد على أي حال. كتب يقول: (في الحقيقة، إن توقع استعادة حرية التجارة كلية في بريطانيا العظمى يماثل سخف توقع تأسيس أوشيانا أو المدينة الفاضلة فيها)^(١).

اختار سميث مقارناته مع السخف العبثي وعينه على أمثال نيوت غينغريتش^(*) والرؤى الحاملة المغالية في أوهامها التي سبقت عصر الأنوار. كانت المدينة الطوباوية الفاضلة التي تخيلها توماس مور في القرن السادس عشر عبارة عن جزيرة يعيش عليها سكانها بأسلوب جماعي ويشتركون في أملاكها المشاعة. واشتق اسمها من الكلمتين اليونانيتين المتماثلتين لفظاً / outopus ، eutopos / وتعنيان/ المكان الطيب واللامكان/. أما أوشيانا فهي مكان مشابه تخيله قبل مئة سنة جيمس هارينغتون الذي اقترح سياسات اجتماعية خيالية ومستبعدة التحقق مثل إلغاء الدعم الزراعي عن المزارعين الأثرياء. أما الطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية فقد وصفت كتاب هارينغتون (أوشيانا) بأنه (ممل إلى حد يتعذر إصلاحه).

لكن كتابات آدم سميث ليست كذلك. في الجزء الثالث من (ثروة الأمم) عشرون صفحة تتناول قوانين حظر تصدير الحبوب تمثل قراءتها اختباراً صعباً لتحمل القارئ. لكن عند نهايتها يجذب

(*) (١٩٤٢-): سياسي أمريكي (جمهوري) ورئيس سابق لمجلس النواب (١٩٩٥-١٩٩٨). عرف بمساعده العنيد لتحقيق المثل العليا المحافظة، والمطالبة بتقليص سلطات الحكومة الاتحادية. (الترجم).

انتباهه ويعيد إليه اهتمامه بسحر تواضعه في التسليم بصحة مثل أعلى. إذ أدان ظلم هذه القوانين الفادح، لكنه لم يتابع التشدد كما نتوقع اليوم من أولئك الذين يظنون أنفسهم على صواب دومًا. بدلًا من ذلك توصل إلى نتيجة متواضعة دون نسيان حماقات السياسة المحتومة: (ربما نقول عنها ما قيل عن قوانين سولون، أي على الرغم من أنها ليست الأفضل في حد ذاتها، إلا أنها أفضل ما تسمح به المصالح والأحكام المسبقة والمزاج السائد في العصر)^(٢).

لولا هذا التواضع لكانت قراءة مشروع آدم سميث الفلسفي تشبه في تجهمها وكآبتها العيش في ظلال المشروع الفلسفي لكيم جونج إيل في كوريا الشمالية. امتد موقف سميث المتواضع فيما وراء الأفكار المثالية إلى الأفكار نفسها، إلى تقديره لذاته. في مقالة مبكرة بعنوان (تاريخ الفلك)، كتب سميث يقول إنه (يسعى إلى تمثيل المنظومات الفلسفية كلها بوصفها ابتكارات للمخيلة، ووصل ظواهر الطبيعة المنفصلة والمفككة معًا)^(٣). وتابع ليعاقب نفسه على الغلو في الاتفاق أيضًا مع فيزياء السير إسحق نيوتن (باستخدام لغة تعبر عن ارتباط مبادئها معًا.. كأنما هي السلاسل الحقيقية التي تستعملها الطبيعة لجمع عملياتها المتعددة معًا)^(٤). تطلب الأمر نابعة كإنشتاين ليظهر مدى صواب سميث.

أراد سميث نشر ثلاثة (ابتكارات إبداعية للمخيلة): (نظرية العواطف الأخلاقية)، و(ثروة الأمم)، وكتاب عن مبحث القانون،

أي عن تلك الروابط الأكثر ابتكاراً وخيالاً، بين القانون والحكم. لم يستكمل الأخير قط، وقبيل وفاته حرق ملاحظاته ومسوداته. وربما هناك سبب وراء ذلك. فكثير من أفكار سميث عن القانون والحكم تتبدى بجلاء في أول كتابين. ولم تضاف ملاحظات الطلاب التي سجلت محاضراته التي ألقاها عن مبحث القانون في ستينيات القرن الثامن عشر الكثير إلى جملة أفكاره وتفكيره. دعونا نعرف بحكمته المتفوقة. يجب أن يكفينا العمل الصالح والجهد المحمود. أما أن نطالب بواجب الإصغاء إلى الخطب في الحملات الانتخابية، والمساهمة بأموالنا فيها، ثم التصويت لمصلحة الحمقى، فهذا يفوق الاحتمال. ومثلما أعلن سميث نفسه في (العواطف الأخلاقية):

(ربما نحقق قواعد العدالة عبر الامتناع عن فعل أي شيء)^(٥).

وربما ينبثق إحساسنا بالصواب والخطأ والحق والباطل من هذه العطالة والامتناع عن القيام بأي نشاط، وذلك وفقاً لـ (نظرية العواطف الأخلاقية). فأهم ابتكار إبداعي للمخيلة هو الأخلاق.

يستهل سميث (العواطف الأخلاقية) بلغز تعتمد عليه سعادتنا كلها: (إلى أي حد تصل أنانية الإنسان المفترضة؟ تتبدى بوضوح بعض المبادئ في طبيعته، تثير اهتمامه بحظوظ الآخرين، وتجعل سعادتهم ضرورية له، مع أنه لم يستمد منها شيئاً)^(١). أما جذر هذه المبادئ فهو التعاطف، وفقاً لسميث. نحن كائنات متعاطفة مع الآخرين. ونمتلك عاطفة واحدة لا يمكن تصنيفها من قبل

المتشككين في الدوافع الإنسانية في خانة الجشع أو الخوف. وهي ليست الحب. فربما نحب دون الشعور بالتعاطف مع الآخرين، مثلما فعل جون هينكلي (*) حين (أثبت حبه) للممثلة جودي فوستر.

يزودنا التعاطف بالقدرة، والحماس، والرغبة في مشاركة أشخاص لا نحبهم أبداً مشاعرهم. نحب مشاركتهم أحاسيسهم النبيلة والوضيعة في آن. نستمتع بالتعبير عن تعاطفنا مع أحزان الغرباء عنا تماماً. ونتشوق لمشاركة الآخرين في أتفه أحاسيسنا. بل نتخلى كما كتب سميث: (حتى عن روح الدعابة إذا ضحك صديق على دعابة بصوت أعلى أو مدة أطول مما نظن أنها تستحق) (٧).

ينتج هذا التعاطف، كما أكد سميث، عن المخيلة لا عن مدركاتنا الحسية مثل معظم المشاعر. وبغض النظر عن مدى حدة التعاطف الذي تثيره الحالة، لا نشعر - جسدياً - بألم الآخرين. وفي دحض استباقي لمنطق أي رئيس مستقبلي للولايات المتحدة، استخدم سميث مثال رؤية شقيق على المخلة (**). أعلن سميث: (لم تحاول حواسنا، ولا يمكن أن تحاول، جرننا إلى ما وراء ذواتنا الشخصية) (٨). فمخيلتنا هي التي تولد التعاطف وتمنحه قوته.

يتمتع الناس بالموهبة الإبداعية الابتكارية التي تضعهم في مكان الآخرين، وتجعلهم يشعرون بشعورهم. حتى أكثرهم سطحية

(*) في الثلاثين من مارس عام ١٩٨١، أطلق هنكلي النار على الرئيس الأمريكي ريفان. ووجدته المحكمة غير مذنب بسبب جنونه وأودعته مصحة للأمراض العقلية. (الترجم).

(**) أداة تعذيب (قديمة). (الترجم).

واستهتاراً وطيشاً يمتلكون هذه الموهبة الإبداعية (نحن ندعوهم بالممثلين).

لكن التعاطف بحد ذاته - مع البشر، أو الحيوانات، أو آل كلينتون - لا يمكن أن يشكل الركيزة المؤسسة لأي منظومة أخلاقية. وإلا سيعد مشاهد التلفزيون الذي يقضي سحابة النهار أمام شاشته قديسًا. كتب سميث يقول: (يجب ألا يرضى بأعمال الخير الكسولة، ولا يتخيل نفسه صديقاً للبشرية، لمجرد أنه يرغب من صميم قلبه في رخاء العالم وازدهاره)^(٩).

على المخيلة، التي تعمل على إظهار مشاعر الآخرين، أن تبذل جهداً أكبر لتظهر لنا ماهية شعورهم: هل هم على صواب أم خطأ. ثم هنالك مشكلة هل نحن على صواب أم على خطأ. سوف نشعر على الدوام بكثير من التعاطف مع أنفسنا. (لسنا على استعداد للاشتباه في إصابة أي شخص بأفة الأنانية. وهذا لا يمثل أبداً الجانب الضعيف من الطبيعة البشرية)^(١٠)، كما كتب سميث. لا يمكن للأخلاق أن تكون مجرد حزمة من المشاعر النبيلة، أو قرصاً نبتله لنصبح أخلاقيين.

يجب أن تتولى مخيلتنا القيام بالمهمة الإضافية المتمثلة في إيجاد طريقة لإطلاق أحكام صائبة على مشاعرنا وعلى مشاعر الآخرين وعلى الأفعال التي تسبق هذه المشاعر. جسد آدم سميث أحكام المخيلة الواعية هذه وسمى القاضي الأخلاقي في أدمغتنا

(المشاهد الحيادي). وربما كان ذلك إشارة مراوغة إلى مقالات جوزيف أديسون وريتشارد ستيل التي نشرت في بدايات القرن الثامن عشر في صحيفة (المشاهد) (Spectator)، (حيث المشاهد لا يلعب دوراً عملياً في الحياة). كان ذلك مشابهاً لقول أوبرا وينفري إنها لا تشارك بأي دور. لقد توقع سميث عبر (المشاهد الحيادي) ظهور مضيفي البرامج التلفزيونية الذين ينشرون التعاطف في كل مكان ويأخذون دور الحكم في هذه المشاعر. وبالطبع، لم يكن ناضجاً من الناحية التقنية. وكان على أوبرا ذاتها الانتظار إلى أن يصل تقسيم العمل إلى مرحلة يقوم فيها المختصون بالتخيل نيابة عنا.

أنتج (المشاهد الحيادي) عرضاً لعصر أكثر جدية: (الفلاسفة النفعيون الذين يعانون الحب المسيحي!). يمكن لكتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) أن يتحول إلى عرض تلفزيوني نهاري إذا أنتجته محطة بي بي إس (PBS)، وقدمه مضيف يشبه بيل مويرز في كل شيء، باستثناء ذكائه.

يجب أن يكون المضيف على مستوى ذكاء سيغموند فرويد على أقل تقدير. وصف سميث أيضاً عملية الأنا العليا قبل فرويد بزمان طويل، وبأسلوب أكثر حدقاً وذكاء. ومنحها اسمًا لم يشابه بطل قصة هزلية. ووصل ضميرنا بسمات وخصال إنسانية أكثر نبلاً ومعقولية مما يدفع كلباً أليفاً للتمسح بأرجلنا.

نحن نتصور المشاهد الحيادي بوصفه يمتلك معرفة كاملة بظروف كل فرد، وتجربته، ومقاصده. ولأنه متخيل موهوم لا ذات

له، ليست له مصلحة شخصية في أي حكم يصدره. زعم سميث أن ما نفعه، حين تطور المبادئ الأخلاقية، هو صياغة ما لدينا من مشاعر التعاطف في أفكار وأفعال نتوقعها من المشاهد الحيادي، المتعاطف لكن الموضوعي والعارف بكل شيء (ولا يزال متعاطفًا على أي حال).

(حين تكون مشاعرنا المستكينة على هذه الدرجة من السوء والأناجية دومًا، فكيف تكون مبادئنا الفاعلة على هذا القدر من السخاء والنبيل؟) ^(١١)، حسبما يسأل سميث. الإجابة تكمن في (ساكن الصدر.. القاضي العظيم والمحكم الكبير لسلوكنا) ^(١٢). إن معاينة الأشياء من منظور المشاهد الحيادي تعلمنا الانضباط الذاتي العاطفي الذي نحتاج إليه للتصرف بحكمة مقبولة. فكروا بسلوك الأطفال الذين لم يتلقوا بعد تعليماتهم الأخلاقية، أو السكارى الذين نسوا كل شيء عنها.

بفضل تعاطفنا الناتج عن المخيلة، نسعد لسعادة الآخرين، ونحزن لحزنهم، ونأمل أن يبادلونا الشعور ذاته. لكن هذه المشاركة العاطفية مجهدّة ومرهقة. علينا تحفيز مخيلتنا لكي نضع أنفسنا محل الذين تتجاوز مشاعرهم مشاعرنا في القوة والشدة - وندب موت كلب صديق هرم أخرج. يجب أن نسيطر على عواطفنا حين لا تكون مشاعر الآخرين بقوة مشاعرنا ذاتها - ويضحكون بأدب حين ندب كلبنا الأليف ونتذكره.

وفقاً لأدم سميث، يستخدم (الحكيم الفاضل) مخيلته لإبداع (فكرة اللياقة والأدب والكمال). وهذه (تتشكل بالتدرج من مشاهداته وملاحظاته ومسلكه ومسلك الآخرين. عمل بطيء وتدرجي وتقدمي لنصف الإله العظيم الرابض في داخلنا)^(١٣). وإذا لم يسع المشاهد الحيادي لتعليمنا (حماية الضعيف وكبح جماح العنيف ومعاقبة المذنب)^(١٤)، سوف يدخل الإنسان (إلى أي مكان يتجمع فيه البشر كأنه يدخل عرين الأسود الضارية)^(١٥)، كما كتب سميث. أو غرفة أطفال، أو حانة سكارى. أو كأنما يشارك في عرض تلفزيوني نهاري، أو يجلس في مقعد كلبه المحبوب الميت.

يكشف إدراك آدم سميث للدور الرئيس للمخيلة في التفكير الأخلاقي عددًا من الجوانب المتعلقة بالأخلاق. الأخلاقيات نتاج جهد. والسبيل القويم للسلوك الأخلاقي ليس جزءًا من معرفة غامضة لا يمكن اكتسابها إلا بقراءة نصوص غريبة مبهمة. وعلى القدر ذاته من الأهمية، لا يمكن تعلم الأخلاق عبر القراءة الحرفية النصية للكتاب المقدس. أكد سميث أن (الوصايا العشر تأمرنا باحترام الأبوين وطاقتهما. ولم تذكر حب أطفالنا)^(١٦). إذ لم يضمنه الرب فيها لأنه لا يعدنا عصابة من الحمقى المحرومين من المخيلة المبدعة. فتعاطفنا مع أطفالنا لا يحتاج إلى وصايا. أما تعاطفنا مع آبائنا وأمهاتنا.. حسناً.. بالمناسبة هل زرت والدتك هذا الأسبوع؟ أم أجلت الزيارة بسبب مشاغل ملحة؟

تخيّل الأشياء عمل. والمخيلة التي يصفها آدم سميث ليست نزوة سهلة، غريبة ومتقلبة، كتلك التي نفرضاها على أطفالنا، الذين نتعاطف معهم كثيراً كما هو مفترض. لا يوجد شيء في (نظرية العواطف الأخلاقية) يشابه الديناميكيات الضخمة الملونة والخرافية من أكالات العشب التي تظهر في برامج الأطفال التلفزيونية. فالغناء مع (بارني الذي سيصبح صديقك أيضاً/إن صدقته) يؤدي في أفضل الاحتمالات إلى إنتاج تفاهات مثل أوشيانا. قيل إن كيم جونج إيل مغرم بالسينما، وربما يعيش حياة خيالية تثير أوهامها مجموعات ضخمة من أقراص الفيديو المدمجة.

المخيلة التي يصفها سميث هي المخيلة الفاعلة التي تمتع بها إنشائين أو نيوتن، بكل ما تتضمنه من انضباط. (لا يعد التحكم بالذات فضيلة كبرى فقط، بل يبدو أن الفضائل الأخرى كلها مستمدة من بريقه الأساسي المتلائم)، مثلما يكتب سميث^(١٧). و(لا توجد فضيلة في الدرجة العادية الشائعة من الأخلاق. فالفضيلة هي الامتياز)^(١٨).

يربط هذا العمل الإبداعي الصعب التعاطف الأخلاقي المحوري في (نظرية العواطف الأخلاقية) مع التعاون المادي الضروري في (ثروة الأمم). على المخيلة أيضاً بذل جهد خلاق لتقسيم العمل وممارسة التجارة. ويمثل التعاطف والتعاون الجانبين الأكثر إدراكاً والأقل إدراكاً لما يتيح للحضارة الوجود. فهما (المبدآن المتأصلان في طبيعة الإنسان، اللذان يثيران اهتمامه بحظوظ الآخرين).

ينطبق هذا كله علي. فأنا أكثر وعياً إلى حد ما حين أكون طيباً مع الأسرة في المنزل في عطلة نهاية الأسبوع، وأقل وعياً بها في المكتب صباح يوم الإثنين.

رأى سميث إمكانية أخلاقية في اهتمامنا بالآخرين وبمصلحتنا الشخصية على حد سواء. حين نعطي أحدهم زجاجة شراب نعلم أننا أفدنا شخصاً آخر. وحين يتركز اهتمامنا على الأسرة في عطلة نهاية الأسبوع، ونشرب تلك الزجاجة، نعلم أيضاً أننا أفدنا شخصاً آخر - صاحب المعصرة، ومعبئ العصير، وصاحب المخزن. وعندما نشعر بالانفصال والتنافر يوم الإثنين، لا ندرك ذلك إلا إذا عملنا على (ابتكارات للمخيلة، لوصل ظواهر الطبيعة المنفصلة والمتنافرة). كان نظام الفائدة غير المقصودة هو ما عناه سميث بـ (اليد الخفية)، وهو مفهوم ظهر أول مرة في (نظرية العواطف الأخلاقية)^(١٩).

إذا لم نعلم بأداء العمل الصعب الذي يتطلبه التعاطف المنتج في المخيلة، نضع أنفسنا في ما دعاه سميث (أسوأ الحالات وأكثرها خسة ووضاعة، ونفقد الإحساس الكلي بالسلوك الشريف والمسلك المشين، والرذيلة والفضيلة)^(٢٠). الأشرار شخوص متخيلة في الخيال الشعبي العام فقط. وقد تبدو فضائح الشركات التي تفجرت في السنوات الأخيرة مخططات مبتكرة وأصيلة لعبقرية شريرة. لكن حين يزول الغموض عن الحسابات والأموال، تتكشف اليد المبتذلة المختلسة.

يمكن لرجال الشرطة، والقضاة، والندل، والآباء والأمهات، وغيرهم أن يشهدوا على صحة وصف هانا إرنست(*) لسلوك أدولف أيخمان(**): (ابتذال الشر). الابتذال هو المكون الرئيس في التفكير الإجرامي - بدءًا بالمحتالين والبؤساء وانتهاء بأعلى المستويات في التراتبية الهرمية النازية.

من الخطأ قراءة (ثروة الأمم) بوصفه تبريرًا يسوغ الجشع المحايد أخلاقيًا. فهو يمثل محاولة إضافية لآدم سميث لجعل الحياة أفضل حالًا. كتب يقول في (نظرية العواطف الأخلاقية): (من أعظم قوانين المسيحية أن تحب جارك كما تحب نفسك)^(٢١). لكن لنلاحظ التشبيه الذي استعمله يسوع المسيح وذلك الذي استشهد به آدم سميث. (نظرية العواطف الأخلاقية) كتاب يتعلق بجيراننا. و(ثروة الأمم) يتعلق بالنصف الآخر من المعادلة: نحن.

وافترض، كما هو واضح، أن الاهتمام بأنفسنا يمثل أعلى مستوى من القداسة. ونحن بحاجة إلى ذلك، منطقيًا. في (نظرية العواطف الأخلاقية) أصر سميث، مستشهدًا بالفيلسوف اليوناني زينون، على أن كل واحد منا: (موصى أولاً وقبل كل شيء بالاهتمام بنفسه)^(٢٢). و(وهب مبدأ حب الذات)^(٢٣). فحين أكون معدماً، وجائعاً وعارياً وكارهاً لنفسي لن أفيد أحداً من الجيران في الحي.

(*) (١٩٠٦-١٩٧٥): مؤلفة أمريكية، ومختصة بالعلوم السياسية، وأستاذة جامعية، من أصل ألماني. (المترجم).

(**) (١٩٠٦-١٩٦٢): مسؤول نازي أدين بارتكاب جرائم حرب ونفذ فيه حكم الإعدام. (المترجم).

في (ثروة الأمم)، ألع سميث بإصرار على ضرورة أن نكون أحراراً في الاهتمام بأنفسنا. يظهر كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) كيف جعلنا المخيلة نهتم بالآخرين. في حين يبين (ثروة الأمم) كيف جعلنا المخيلة نأكل ونلبس ونهتم بأنفسنا.

لا يمكن إلا للمخيلة تبرير ما جاء في سفر التكوين (٢٦:١): (وقال الرب، لنخلق الإنسان على صورتنا). من المؤكد أن ذلك لا يتعلق بالشكل والمظهر. ربما تمثل المخيلة السمة الوحيدة المميزة للبشر. إذ تكتشف الحيوانات بحواسها كل ما يفعله البشر وأكثر. وربما يخطر ببالها كثير من الأفكار مثلنا، على الأقل من التاسعة صباحاً إلى الخامسة مساءً. متى موعد الغداء؟ يمكن للحيوانات أن تحب. ووفقاً لما نعلمه، يمكن لشعور رومانسي أن يخترق قلب الأميبا - أو أي متعض من المتعضيات وحيدة الخلية - قبل أن تنقسم. لكن الحيوانات، التي يتضح بكل جلاء عدم حساسيتها تجاه الفضيلة والرذيلة حين يتمسح كلبك الصغير برجليك، لا يمكن أن تتعاطف، فضلاً عن أن تتعاطف أخلاقياً. ولا يمكن لها أن تتعاون بما يكفي لبناء حضارة، إلا إذا حسبت أن كومة الرمل التي يجمعها النمل تشابه الأكروبوليس. كتب سميث في (ثروة الأمم): (لم يشاهد أحد قط كلباً يقوم بعملية تبادل نزيهة وواعية لعظمة مع كلب آخر)^(٢٤).

لم يعتقد آدم سميث أن الخير والطيبة متأصلان فينا، ولا صدق بأن الغنى والثراء سمتان أصيلتان في البشر. لكنه آمن بأننا وهبنا

قدرة التخيل لنكون أحياناً وأثرياء، إن منحنا حرية بذل الجهود الضرورية. وتوفر قراءة الكتابين معاً مخطط تفصيلي - للروح أكثر من المجتمع.

لم يطلق سميث أي دعاوى دينية فيما يتعلق بمشروعه الفلسفي. ذيل الفصل الأول من كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) بهامش قال فيه: (الاستقصاء الراهن لا يتعلق بقضية الصواب إذا جاز التعبير، بل بالحقيقة)^(٢٥). وقصد أن يظهر، إضافة إلى (ابتكارات المخيلة المبدعة والمجردة) ما دعاه بـ (الخطة والنظام المخلوقين)^(٢٦). لكن التصميم الذي رسمه لم يكن أقل من الهندسة الميكانيكية للروح القدس.

